القا[illegible]

وأثره في الحديث

إن من يزور « روما » فيترك حي « الكورسو » وينحدر متطوفاً نحو « التيبر » مخترقاً ذلك التيه المؤلف من الأزقة الضيقة المعتمة بمتبان عاصمة إيطاليا القديمة وضيوفها ، يعمه ضرب من الغبطة في تتبع تلك السجلات الصخرية التي خلفتها الأجيال المتعاقبة من الرومان ، والذين يحرس اليوم أخلافهم خلال ديارهم . فاذا استدار بعد ذلك دورة ، وقف أمام حشرجة من الأعمدة الأخاذة ، برغم تهدمها ، أعمدة الدرج العظيم الذي شيد عند ما عرف ذلك المكان باسم « كامبوس مارتيوس » وكان مسرح الهيكل الذي أنشأه الامبراطور « هدريانوس » .

بين الأعمدة جدران شيدت من كتل عظيمة من الصخر « التيبورتي » ، نقضت من بناء امبراطوري آخر ، وبني هنالك ليكون حصناً غليظ الهيئة مظلم الجنبات ، في تلك الأيام التي كان يهب فيها أسر من مثل « أورسيني » أو « كولونا » الى السيف ، اذا وقع التشاحن على انتخاب « ليون » أو « فريفوري » لمقام البابوية .

هنالك قد تقع على ملف رقيم الفن من عصر النهضة ، صنع في حياة « برامنتي » أو « ميكلينجيلو » . بينا ترى هنا أو هناك شيئاً من ملاط الرمس فوق بناء « الأتروسكتو » وقد تسلخ وانتشر بما صادف من عنف رجال « غاريبالدي » ذوي القمصان الحمر ، أو رجال « موسوليني » ذوي القمصان السود .

ثم اعبر شارعاً مزدحماً وانعطف الى زقاق يفصل صرحين من الصروح المعروف أمرها في القصص ، فانك تقع على احتفال « ذشتي » أقيم أمام قبر « فتري إمانويل » في كنيسة « سانتا ماريا روتوندا » ؟ وكانت من قبل مدفناً تكريمياً أقامه « هدريانوس » تخليداً لذكرى الفرق الرومانية ، التي غزت كل آلهة الشرق .

عصراً بعد عصر ، وجيلاً بعد جيل ، استمر الاخلاف ما شيد الاسلاف ، وحوّروا معالم عقائد أسلافهم ، فحفظوا بها بعض الاحيان كاملة كما هي ، وقوّضوها حيناً آخر ، وأقاموا أنقاضها معالم حديثة . هذه الحياة متدفقة ، جياشة ، تزدحم بمؤثرات الوجود والأمل والمثل والموت ، في ظل طاغية أو سيد أو بابا أو ملك أو وثن أو معتقد ، سواء في ذلك مظاهر نشأتها الحديثة ، أو مظاهر تعنيتها على ما انقضى من الاعمار .

وفي الحق أن « روما » مدينة خالدة . خالدة بقدمها ، في سورها وجدرانها الدامعة ، خالدة بعداتها ، في آثارها ومراميها ، وكأني بها رمز الانسانية التي اقتبلت تلك المدنية ، فهي صرحها ومركزها .

ذلك بأن تاريخ المدنية البشرية ، انما هو قصة تشابه « روما » ، جهد يبذل وآثار تقام ثم تتكيف وتضخم على الاستمرار ، وتمضي في سبيل يلائم بينها وبين مجاري الحياة . رواية الجدران القديمة يهدمها الزمن ثم تتقوض ، ثم تبنى ثانية في صور جديدة . ورواية الإفك والعدوان تمتد بها أيدي الهمج الجشعة الغليظة الى الآثار القديمة ، ورواية الكنائس التي يحوطها بالعناية المؤمنون ، والقصور والدساكر تسوى بالارض لتمهد طريقاً ، ورواية النفائس الشرقية تلتئم في أبهاء القصور التي شيدها أمراء عصر النهضة ، والصورة الشيوعية تضج بها النوادي التي عمرها أشراف « روما » .

أما إذا كان أثر القديم في الحديث غير بين في جميع النواحي ، بيانه في مدينة الكرسي البابوي ، فانه من الحقائق الثابتة أن الآراء والمعتقدات والغايات والمثاليات التي ينطوي

[illegible]

فيها إثارات وبقايا من الاشياء التي ورثت خلال العصور المتتالية ، صبت في قوالب جديدة لتلائم حاجات المزارع الأميركي ، والعامل الاوستراليّ . ولو جلت جولة في نواحي العقل الحديث ، لانكشف لك عما فيه من تراكب العقائد وتراكبها طبقة على طبقة ، وقد ظل ذلك مطرداً غير منقطع خلال الاحقاب المتطاولة ولاستبان لك ما فيه من أشتات الآراء المتجمعة من هنا ومن هنالك ، وقد حبكت معاً ثم شيدت بناء قام أساسه على قسط وافر من دواعي الانحلال والتصدع ، وفي جدرانه عدد من الثغرات ، ولكن من ورائه قوة العقل تعمل على تدعيم ذلك الاساس وسد تلك الثغرات ، ليكون ذلك الهيكل في مجموعه قادراً على تلبية قوامر الحاجة ، والقيام بوظيفة الحي والسكن ، حتى تأتي القوة التي ترفعه درجة أخرى نحو الكمال .

فقد يعتقد الانسان في العصر الحاضر أن ذرة الزئبق يمكن تحويلها الى ذرة ذهب ،

وأن عيسى الناصري قد قام من بين الموتى وانه الآن جالس الى يمين الذات العلية ، ذات الله ، وأنه من الفخر أن يموت الانسان في ميدان الحرب دفاعاً من وطنه ، وأن كل المشاحنات التي تقوم بين الدول ينبغي أن تعالج وتفض في محكمة عالمية ، وان الاتحادات بأنواعها ومختلف صورها يجب أن تحل وتلغى ، وان دنيا الحياة الانسانية ينبغي أن يفسح المجال فيها للديمقراطية حتى تظل سالمة آمنة . ومع كل هذا فان الانسان الحديث ليؤمن بهذه الأشياء ، وليس في نفسه غير خيال ضعيف عن أصل نشوئها ومعانيها وقيمتها لحياته التي يحياها . خيال أشبه بما يقوم في نفس الطفل الروماني ، الذي يمرح بين الآثار المخلفة عن أسلافه الأولين .

* * *

ان من بواعث الابتهاج والغبطة أن نكشف القناع عن نواحي العقل الحديث وثناياه وشعابه المختفية في تضاعيف الجيل الحاضر ، وأن نفحص عن كل خيط من الخيوط التي تؤلف سداه ولحمته ، وأن نتعقب بداياته منذ أول ظهورها منسوجة على نول الزمان . ان ذلك لأبهج للنفس وأرخى للعقل من جولة في جنبات « روما » وإن ذلك لأكثر من باعث على الابتهاج والغبطة . إن له لوزناً كبيراً ، عند من يريد أن يتفهم حقيقة الحياة الحافة به ، ويفقه طبيعة قواها العقلية ، ويتبين ما يحتمل أن يتدفق فيه تيارها من الاتجاهات ، ولعله يأخذ المجداف في يده ، فيمضي فيه .

إن الآراء لمن أبقى الأشياء التي تمخضت عنها المدنية . والآراء التي تحوم اليوم في العقول الحديثة ، لها أصولها الممتدة إلى ماضٍ لا تعيه الذكريات . ومن طريق العقل يستطيع الانسان أن يصل نفسه بآباء عريقين في القدم . وان صلته بهم عن طريق العقل ، لأوثق حتى من صلته بهم عن طريق الاتصال الطبيعي والعلاقة السلالية . ويصدق هذا خاصة على أميركا . فانها برغم ماضيها القريب هي جزء من المدنية الاوربية ، كروما نفسها . ومن أجل أن نفهم حقيقة العلم والدين والفن والنتاجات الأدبية في العالم الحديث ، ونقيمها ونقدرها حق قدرها ينبغي أن نستوعب عظائم ما وصل اليه الانسان في سالف عصوره ، تلك العظائم التي شيدت ذلك الصرح الفسيح ، الذي تطوف في أنحائه اليوم الروح الانسانية .

إن الحاجة الملحة في أن نحلل معتقدات الانسان ونتتبع بداياتها ، إنما ترجع الى حقيقة أن الآراء ليست كآلهة « أوليمبوس » ، باقية أبدية ، ثابتة دائمة الشباب . وهذه الحقيقة على ما لها من بالغ القيمة والأثر ، قد أغفلها العديد الغالب من الباحثين . إنها ككل الأشياء البشرية ، تولد وتنمو وتنضج ، وقد تموت .

فالتطور صفة الحياة ، وكل ما هو حي ، لا بدّ له من بيئة ينتعش فيها ويعيش ، كما ينبغي له أن يتكيَّف بها . والناس ينظرون في جُلّ معتقداتهم ، نظرتهم إلى التلال التي يرفعون اليها أبصارهم ، فكأنها ثابتة غير متغيرة ، وكأن كل انحراف عنها . انحراف لا يقرّه الطبع ولا يجيزه العقل . أو انهم يتخذونها كما يتخذون قطع النقد المسبوك من خالص الذهب ، فيعتقدون انها صالحة للتعامل بها في كل زمان ومكان . فالنصرانية والعلم والديمقراطية والملكية الخاصة ، على ما يتخيلون ، كانت ولم تزل ، وسوف تكون ولا تزول . فالانقلابات التي يعترفون بأنها واقعة في عالم الأشياء المادية ، لا يرى إلاّ الأقلون منهم ، أن مثلها قد يقع في عالم الروح ، الذي هو أقل وضوحاً من عالم المادة . وليس ذلك لأنهُ من المتعذر ان ندرك ان الانسان قد اعتقد في عصر مّا عكس ما يعتقد اليوم ، ولكن لأنه من المتعذر علينا أن ندرك انه اعتقد حقيقة بتلك المفارقات البعيدة عن العقل ، وانه آمن بها وأخلص لها ، إيماننا وإخلاصنا لما نعزّ ونحترم من يقينياتنا ، وربما لم يبق عنده من الدلائل على صحتها إلاّ النزر اليسير .

إن تتبّع تاريخ هذه المعتقدات في نشوئها وتطورها النائي ، قد يولد فينا حسًّا ندرك به شيئاً من التلاؤم الذي يقوم بين الآراء وقوالبها الاولى ، ونعرف به أن صحتها انما تستقر من بيئاتها التي نشأتها ، وان منفعتها تظل ، ما دامت تلك البيئة تغذيها وتربيها .

• • •

إذا [illegible] عقول الناس [illegible] تراكمت [illegible] المعتقدات فوق [illegible] اللون ، كان من مهامّ العقل البشري الكبرى أن يفقه تاريخ حياة هذه المعتقدات ، ولماذا وجدت ، وهل من حقها أن توجد ، أم انه ينبغي أن تنبذ وتهمل ؟ ما هي تلك الموجات الفكرية العظيمة والآمال المتوثبة التي خلفت من ورائها تلك الرواسب المتراكمة ؟ عن أيٍّ من الاشياء عبرت عندما حلها الفيضان ، وما قيمة الأشياء التي خلفتها للعصر الحاضر ، وما هو الجديد الذي ينبغي للانسان أن يبحث عنه ، ليقوم بواجبه نحو تجديد الحضارة ؟ ذلك التجديد الذي لا ينقضي أمده ، ولا تنتهي دورته .

إذا انتهى المرء الى معرفة المواد التي تهيئها له الدنيا الطافحة به ، والمصادر النفسية الحالة فيه ومنها يستمد ، بقي عليه أن يستوعب الماضي ، ويعرف أثره في الحاضر ، ثم يتفهَّمه ويحكمه ، حتى تكون له السيادة عليه .